المقدِّمة

على نهج ابن خلدون[1]: كل ظاهرة في الوجود الطبيعي والاجتماعي تخضع لقوانين راتبة:

ما يحدث في أوطاننا الآن نتيجة حتمية لمقدمات سبقتها ولا تجدي معالجة النتائج دون إزالة المقدمات.

الأمة الإسلامية تواجه تأزماً حضارياً، وفكرياً، وسياسياً. أسبابه شراكة بين تقصير أهل الشأن واستغلال الدخلاء لهم خدمة لمصالحهم.

هذا الكتاب يتناول التأزم في نطاق الأمة العربية الممتدة ما بين المحيط إلى الخليج. وأقسامها هي: المشرق، والمغرب، ووادي النيل، والخليج.

الأزمة التي تواجه المنطقة من هولها دفعت كثيرين لتفسيرها بالمؤامرة.

العيوب داخلية وحتى إتاحة الفرصة للدخيل لاستغلالها عيب داخلي. هذا الكتاب قد يكون مدهشاً لذلك أقدم له بأنني في ظروف مفصلية قدمت تشخيصاً وحلولاً أثبتت الأيام صحتها. أقول:

١. لدى حرب اليمن في الستينيات خاطبت الملك فيصل والرئيس جمال عبد الناصر في عام ١٩٦٨م ناصحاً باقتراح توفيقي. هاجمني أنصار الطرفين. ولكن ما اتفق عليه الزعيمان كان مطابقاً.

(١) ابن خلدون (الأربعاء ١ رمضان ٧٣٢ هـ/ ٢٧ مايو ١٣٣٢م- الجمعة ٢٨ رمضان ٨٠٨ هـ/ ١٩ مارس ١٤٠٦م): ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي. يعتبر مؤسس علم الاجتماع الحديث أهم آثاره (المقدمة) التي ضمنها آراءه في الاجتماع البشري.

٢. لدى إعلان الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش عزمه غزو العراق في أبريل ٢٠٠٣م بادرت قبل الغزو بإرساله خطاباً قلت فيه له: إنك لن تجد صعوبة في هزيمة القوات المسلحة العراقية. ولكن سيكون نصر عسكري وللظروف التي أراها سوف تعقبه هزيمة سياسية فامسك عن الغزو ولكنه فعل ما فعل وكانت النتيجة كما قلت له.

٣. أبرمت اتفاقية السلام المسمى شامل في السودان في يناير ٢٠٠٥م ورحب بها غالبية الناس داخل السودان وخارجه. ولكنني في مايو ٢٠٠٥م نشرت بياناً حللت الاتفاقية وقلت إنها لن تحقق أهدافها المزعومة لعيوب بنيوية فيها، قلت لن تحقق الوحدة، ولا السلام الشامل، ولا التحول الديمقراطي. وقد كان.

٤. وقبل ذهابه للتفاوض بشأن سلام دارفور زارني المرحوم د. مجذوب الخليفة المكلف بالتفاوض من ناحية الحكومة. وسألني رأيي. قلت له ثمة ثلاث نقاط إذا التزمت بها فسوف تتمكن من إبرام اتفاق مع حركتي دارفور المسلحتين. وفصلت له النقاط. لكنه رفضها وذهب إلى أبوجا وأبرم اتفاقاً ناقصاً في مايو ٢٠٠٦م والنتيجة أن الحرب استمرت حتى يومنا هذا (٢٠١٥). وقد علمت من مفاوضين حضروا أن النقاط المقترحة كانت كفيلة بإبرام اتفاق محكم محقق للسلام الشامل في دارفور.

٥. وبعد انفصال الجنوب تراكمت نذر حرب في جنوب كردفان وفي جنوب النيل الأزرق.

هذا مع ظواهر سالبة أخرى في المجالات الاقتصادية، والأمنية، والدولية. اقترحنا لرئيس الدولة السودانية في ٢٤/ ٣/ ٢٠١١م برنامجاً من ١٠ نقاط لينفذه رئيس توافقي ما سوف يمنع اندلاع حرب أهلية جديدة ويخلص البلاد. وسلمته بذلك مكتوباً. لم يستجب ووقع المحظور.

٦. ولدي انفجار مظاهرات بنغازي في ليبيا في ١٧/ ٢/ ٢٠١١م خاطبت

العقيد معمر القذافي[1] رحمه الله أن يستجيب لمطالب المتظاهرين وهي معقولة وألا يستخدم العنف ضدهم. لم يستجب وتصاعد الموقف. قدمت له نصحاً آخر وهو تسليم السلطة للواء أبو بكر يونس رحمه الله وتفويضه للاتفاق مع الثوار حتى لا يقع تدخل دولي أراه في الأفق. لم يستجب فكان ما كان.

٧. في عام ٢٠١٣م وفي إطار منتدى الوسطية العالمي اقترحنا للرئيس المصري السابق محمد مرسي[2] معادلة لتسوية سلمية بينهم وبين جبهة الإنقاذ تنطلق من إلغاء الإعلان الدستوري الذي أصدره في نوفمبر ٢٠١٢م ويجري تعديلاً محدداً في مشروع الدستور المقترح وتعديلاً وزارياً لتوسيع قاعدة الحكومة على أن يوافق الآخرون على استمرار رئاسته حتى نهاية مدتها. وافق أن يدرس الاقتراح وأبدت جبهة الإنقاذ استعدادها للتفاهم. ولكن قيادة الجماعة في المقطم قفلت الباب فانفتح الطريق لثلاثين يونيو ٢٠١٤م وما أعقبه من أحداث.

٨. وفي عام ٢٠١٥م بعد صدور حكم الإعدام على الرئيس المصري السابق محمد مرسي ومرشد الأخوان خاطبت الرئيس المصري محمد عبد الفتاح السيسي أن يستخدم صلاحياته بالعفو عن الإعدام. ووعدت أن يفتح ذلك نافذة تمكننا من العمل على تحقيق حل توفيقي بموجبه يجري الأخوان مراجعات كما فعلت الحركات الاخوانية في بلدان أخرى. موقفنا هو أن الحركة الاخوانية بها تيارات أهمها تيار هضيبي وآخر قطبي. خطتنا سوف ترجح التيار الهضيبي والإعدام سوف يرجح التيار القطبي. ومصلحة مصر في أن تتجه التيارات المنادية بالإسلام نحو قبول الخيار الديمقراطي، والتعددية السياسية، ونبذ العنف. هذا الطلب ما زال معلقاً (أكتوبر ٢٠١٥م).

(١) معمر القذافي (العقيد القذافي) (١٩٤٢ – ٢٠١١م). حكم ليبيا لأكثر من ٤٢ سنة، تمت الإطاحة بحكمه بعد قيام ثورة ١٧ فبراير ٢٠١١م الليبية واغتيل من قبل الثوار في ٢٠ أكتوبر ٢٠١١م.

(٢) محمد محمد مرسي عيسى العياط (٨ أغسطس١٩٥١م): رئيس حزب العدالة والحرية المصري والرئيس الخامس لجمهورية مصر العربية أول رئيس مدني وأول رئيس منتخب للبلاد بعد ثورة ٢٥ يناير، تم عزله وحبسه بعد تحرك الجيش في ٢٠١٣ استجابة لحشود ٣٠ يونيو.

٩. بعد انقلاب يونيو ١٩٨٩م في السودان أخذت من السجن إلى مكان معزول في الخلاء وهددوني أن أسجل اعترافاً بفشل النظام الديمقراطي وإلا أجريت لي محاكمة ميدانية (التاريخ ٢/ ١٠/ ١٩٨٩م) قلت لهم انتم الفاشلون وسوف تحصدون الهشيم وسوف تعود الديمقراطية. وبعد تهديدات سكتوا ومن السجن نشرت كتاباً بعنوان: «الديمقراطية راجحة (أي بالمقارنة للدكتاتورية) وعائدة» وها هي الحقيقة الآن واضحة فالنظام الدكتاتوري فاشل ويحاول العودة للديمقراطية.

١٠. وفي نهاية الحرب الباردة (١٩٤٨- ١٩٩٠م) وما زلت في السجن نشرت كتاباً بعنوان: «تحديات التسعينيات» قلت فيه: «إن جبهة المواجهة العالمية بعد الحرب الباردة سوف تنتقل من مواجهة بين الشرق والغرب. إلى مواجهة بين شمال الكرة الأرضية وجنوبها. وعددت في الكتاب تظلم شعوب الجنوب من دول وشعوب الشمال. وقلت إنه ما لم تخاطب مظالم أهل الجنوب بصورة جادة فإن سكان الجنوب حتى إذا لم تسندهم حكوماتهم سوف يستخدمون أسلحة الضرار الشامل وهي القنبلة السكانية، والقنبلة الصحية، والقنبلة البيئية، وقنبلة المخدرات، والهجرة غير القانونية، والإرعاب (الإرهاب) واختراق ضوابط أسلحة الدمار الشامل. هذا ما نشرته في عام ١٩٨٩م من داخل السجن وها هي اليوم (٢٠١٥م). مشاكل الهجرة غير القانونية والإرهاب تشغل العالم بهذه الخلفية أقدم على تشخيص أزمات منطقتنا الحالية واقترح وسائل التصدي لها وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور:

أولاً: نالت بلداننا استقلالها من دول الاحتلال البريطاني، والفرنسي، والايطالي أي الأوربي وقامت فيها دول يحكمها ملوك أو برلمانات.

الدول المعنية في منطقتنا لم تقم على وحدة وطنية لإنجاح مشروع الدولة الوطنية. ونظام الدولة الوطنية لم يكن مرضياً لشعوب تشدها أشواق قومية ودينية لكيانات أكبر.

اجتاحت الانقلابات العسكرية النظم الجمهورية وتحقق استقرار في المنطقة في ظل نظم عسكرية ذات مشروع قومي بقيادة ناصرية وقيادة بعثية. النظم القومية الناصرية والبعثية رفعت شعارات طموحة فاقت قدراتها في التصدي للمشروع الصهيوني وسنده الامبريالي. المشروع القومي واجه ضربة قاضية في حرب يونيو ١٩٦٧م.

فشل المشروع القومي وتطلع الشعوب لحل مشاكلها الحياتية ولما يشبع آمالها في انتماء أوسع وما يحقق تخلصها من التبعية الفكرية والثقافية والسياسية للهيمنة الدولية فتح الباب واسعاً لمشروع إسلامي، المشروع الإسلامي لم يكن غائباً تماماً، ولكن استجدت ظروف بعثته.

المشروع الإسلامي لم يكن منفرداً في الساحة الفكرية والسياسية ونافسه فكر لبرالي. وعلماني، واشتراكي، وقومي، ولكن حاز رأس المال الاجتماعي الأكبر في البلدان المعنية.

ثانياً: ولكن مهما كانت رؤى الشعوب فإن البلدان المعنية صارت خاضعة لنظم حكم وراثية أو جمهورية مانعة لحرية الفكر وللحريات العامة.

هذا «الاستقرار» قوضه أمران هما:

- احتل الاتحاد السوفيتي أفغانستان في عام ١٩٧٩م فحرك ذلك الجماعات الإسلامية والقبلية في أفغانستان للمقاومة. جماعات إسلامية في كثير من البلدان تحركت لدعم مقاومة السوفيت في أفغانستان. باسم الجهاد.

تنظيم القاعدة[1] نشأ من هذا الظرف ووجد دعماً أمريكياً وعربياً كبيراً. موله، ونظمه، وسلحه بصورة غير مسبوقة. نجح تنظيم القاعدة واسمه الكامل «قاعدة الجهاد» مع المجاهدين الأفغان في إجلاء السوفيت من أفغانستان على أساس

(١) القاعدة، منظمة وحركة جهادوية متعددة الجنسيات أسسها حوالي ١٩٨٩م أسامة بن لادن وعدد من العرب الأفغان (أي الذين شاركوا في حرب التحرير الأفغانية من الغزو السوفيتي الشيوعي).

تحرير أرض المسلمين من الغزاة. ثم اتجه التنظيم على نفس مبدأ تحرير أرض المسلمين لإجلاء الوجود الأمريكي. كانوا في أفغانستان يستخدمون حرب العصابات وصاروا في مواجهة الأمريكان سيستخدمون الأساليب الإرعابية (الإرهابية). الولايات المتحدة أعلنت حرباً «عالمية» ضد طالبان في أفغانستان باعتبارهم حواضن للقاعدة. وضد القاعدة. ولكن هنالك قاعدة سوسيولوجية: إذا توافرت أسباب ثقافية وسياسية للمقاومة لا تجدي معها الوسائل العسكرية وحدها، لذلك طالبان رغم مواجهتها بناتو و١٥٠ ألف جندي لمدة ١٤ عام (٢٠٠١- ٢٠١٥م) تحولت في نظر سكان أفغانستان لحركة تحرير وصارت أقوى الآن مما كانت عليه. والقاعدة التي كانت محصورة في أفغانستان صارت لها أكثر من ١٠ مراكز الآن وهي منتفع كبير من الحرب في اليمن باحتلال المكلا والتمدد في اليمن.

- احتلال العراق والسياسات المتبعة فيه أدت إلى أوضاع أشعرت أهل السنة بالتهميش. هذا بالإضافة لغبن أهل السنة في سوريا أدى إلى تحول فرع القاعدة في أرض الرافدين إلى دولة الخلافة في العراق والشام (داعش). وبعد انتشار داعش في عدد كبير من المواقع أعلنت قيادة داعش الدولة الإسلامية.

- نفس السياسة المرتكزة على قيادة أجنبية وعلى الوسائل العسكرية واجهت الدولة الإسلامية لمدة ١٤ شهراً حتى الآن. ولأن هذا المجهود لا يخاطب المسببات فإن الدولة الإسلامية التي تستخدم أفظع الوسائل الإرعابية تتمدد ولا تنحسر.

القاعدة، وداعش، وفروعهما الكثيرة يعتقدان أن نظم الدولة الوطنية الحاكمة هشة، وأن الشعوب غير راضية بالحكام ما خلق فراغاً هم يريدون ملأه. كما يعتقدان أن الدول الكبرى تستغل الشعوب لمصالحها ما يوجب التصدي لها لتحرير هذه الشعوب.

تعدد فروع القاعدة وداعش أو الدولة الإسلامية واحتشاد أعداد كبيرة من الشباب للانضمام إليهم رغم قسوة ووحشية أساليبهم يدل على وجود عوامل ذاتية وموضوعية تفسر وإن لم تبرر هذه الحركات.

- **الأمر الثاني:** القاعدة، وداعش، و«الدولة الإسلامية» هي حركات استغلت هشاشة الدولة الوطنية في مجال تحركها.

هنالك عامل آخر أضعف الدولة الوطنية في الشرق العربي، وهو التناقض الحاد بين الحكومات والشعوب.

وفي عام ٢٠٠٢م نشر برنامج الأمم المتحدة الإنمائي تقريراً بعنوان: «التنمية البشرية في البلاد العربية» وثق لضعف التنمية البشرية كما يدل عليها غياب الحكم الراشد.

وفي عام ٢٠٠٦م قمنا في إطار نادي مدريد بدراسة الموقف السياسي في ٦ دول عربية. ثم عقدنا مؤتمراً شاركت فيه ١٩ دولة عربية بوفود تمثل حكاماً ومعارضين. صدر عن هذا المؤتمر (إعلان البحر الميت) في يناير ٢٠٠٨م. هذا الإعلان ركز على حقيقة الاحتقان بين الحكومات والشعوب وجاء فيه: «ما لم يجر حوار جاد بين الحكام وممثلي الشعوب يحقق إصلاحاً فالأمر ينذر بانفجار».

ومن تونس في عام ٢٠١٠م انطلق الانفجار الذي تناسل حتى قضى على أربعة رؤساء دول في تونس، ومصر، وليبيا واليمن.

كانت نظم الحكم في هذه البلدان قد استخدمت أحدث أساليب القمع المقتبسة من الستالينية والفاشستية فاستطاعوا أن يجففوا مصادر المعارضة السياسية والنقابية، وأحكموا القبضة الحديدية.

ولكن وسائل التواصل الاجتماعي المرتبطة بثورة الاتصالات وثورة المعلومات أتاحت لشباب الفيس بوك، والتويتر، والانترنت، واليوتيوب، أن يتحرك خارج رادارات الأجهزة الأمنية، هؤلاء استطاعوا أن يجمعوا حشوداً

شعبية غير مسبوقة ما فجر ثورات «الربيع العربي» الرائعة.

عفوية الثورات وافتقارها لبرامج محددة وقيادات موجهة أدى لولاية أمر تديرها قوى غير ثورية. الإدارات التي وليت الأمر في دول ثورة الربيع العربي الناجحة كانت إدارات غير ثورية. ولذلك برمجوا انتخابات خالية من أية تدابير ثورية سابقة لها.

هذه الانتخابات أظهرت مدى ضعف المنظمات السياسية التي عانت من عقود من القمع وقزمت.

هنالك عدد من المنظمات السياسية ذات المرجعية الإسلامية منخرطة في العملية السياسية. الانتخابات التي أجريت بعد ثورات «الربيع العربي» أظهرت شعبية المنظمات الإسلامية المنخرطة في العملية السياسية. وتعود شعبيتها لمناداتها بشعارات إسلامية تخاطب الوجدان الشعبي، ولأنها أثناء الحكم المباد احتفظت بشبكات تواصل عبر أنشطة اجتماعية ودينية.

هذه الحركات مع قدراتها التنظيمية والمالية الكبيرة تعاني من درجة متدنية من الوعي السياسي. نعم تغلبوا على منافسيهم اللبراليين، والاشتراكيين، ولكنهم لم يملكوا رؤية حقيقية لكيفية التعامل مع مؤسسات الدولة الحديثة، ولا لإدارة الاقتصاد الحديث، ولا للمجتمع الدولي الحديث. والرؤية غير واضحة حول إقامة الخلافة التقليدية. وغير واضحة حول برنامج تطبيق الشريعة الذي نادوا به. ولم يكونوا مستعدين لتعامل مدروس مع مؤسسات الدولة التي نشأت في بيئة مدنية، ولا للتعامل مع المجتمع الحديث المدني والإعلامي، والفني، ولا المجتمع الدولي.

في تونس وفي المغرب قرروا التعايش مع ذلك الواقع المغاير والقبول بنصيب محدود من ولاية الأمر ولكن في السودان الذي استولت فيه حركة ذات مرجعية أخوانية على ولاية الأمر عن طريق الانقلاب أسسوا لسابقة مفزعة بربط التوجه

الإسلامي بالاستبداد والانفراد واحتكار السلطة والثروة وقمع الآخرين. وفي مصر رغم حصول الحركة الأخوانية على أغلبية انتخابية فإن نذر الانفراد بالأمر والتمكين، كما في التجربة السودانية، لا سيما عندما حصن رئيس الدولة قراراته من رقابة القضاء بالإعلان الدستوري في نوفمبر ٢٠١٢م، دفعت بموجة احتجاج شعبي هائلة أدت لحشود ٣٠ يونيو ٢٠١٣م الضخمة والإطاحة بسلطة الأخوان المنتخبة.

هؤلاء الأخوان نظموا مقاومة هائلة وصلت قمتها في مسجد رابعة وميدان النهضة.

داخل الأخوان المسلمين عدد من التيارات أهمها تيار معتدل يقتدي بالمرشد الأسبق الشيخ حسن الهضيبي[1] كما عبر عنه في كتابه «دعاة لا قضاة» وتيار متشدد يقتدي بالأستاذ سيد قطب[2] كما عبر عنه في كتابه «معالم في الطريق».

إذا جرت مصالحة فإن التيار المعتدل يرجى أن يتغلب. وإذا صعدت المواجهة فإن التيار المتشدد سوف يتغلب.

الحركة الأخوانية متجذرة في المجتمع المصري وفي خارج مصر ولديها خبرات كبيرة في العمل السري ما يعني أن الحركة في ظل القمع سوف يكون لها وجود تحت الأرض وفي خارج الحدود.

الوسط الإسلامي الناشط سياسياً فيه بخلاف الأخوان أحزاب سياسية مستعدة لقبول العملية السياسية بأحزابها وانتخاباتها ودستورها. هذه الأحزاب كثيرة أذكر منها: أحزاب: النور، مصر القوية، الوسط، العمل الجديد، الفضيلة، الحضارة، البناء والتنمية، الاستقلال، الأصالة، الوطن، الإصلاح.

(١) حسن الهضيبي (١٩٨٩١ - ١٩٧٤م) قاضي مصري والمرشد الثاني لجماعة الإخوان المسلمون.
(٢) سيد قطب إبراهيم (١٩٠٦ - ١٩٦٦م) ناشط وكاتب مصري إسلامي تعرض للبطش الناصري وللإعدام في النهاية وقد أثرت كتبه على الحركات الإسلامية في مصر والعالم الإسلامي.

هذه الأحزاب يمكن ضمن مناخ سياسي معين أن تعتدل. ويمكن في مناخ سياسي آخر أن تتشدد لا سيما وهنالك دعوى ضدها تطالب بحلها باعتبارها أحزاب دينية يحظرها الدستور.

لا شك أن هذه الأحزاب تتطلع للانخراط في العملية السياسية وتطلق على نفسها أسماء قابلة لضم كافة المواطنين رغم اختلاف الملة. وإلى جانب هذه الأحزاب توجد حركات تسقط المواطنة تماماً وتنادي بتطبيق إلزامي للشريعة بوسائل جهادوية، أهم هذه الحركات: أنصار بيت المقدس، هؤلاء أعلنوا الولاء للبغدادي (الخلافة) وكونوا ولاية سيناء. وتنظيم أجناد مصر، وكتيبة المرابطين التي أسسها ضابط منشق من الجيش المصري.

وهناك حركات أخرى: التوحيد والجهاد، والناجون من النار، والعقاب الثوري، وجند الإسلام، والتكفير والهجرة. وهلم جرا. هؤلاء جميعاً ينادون بالخلافة التاريخية وتطبيق الشريعة بأحكام تقليدية وبالجهاد وسيلة لتحقيق ذلك.

كثرة هذه الحركات واتفاقها على مبادئ مشتركة وأساليب عنف مشتركة لا ينفع معهم الفهم التقليدي للإرهاب.

بل هم حركات متجذرة فكرياً واجتماعياً ومستعدة بهمة فدائية ما يوجب معرفة أسباب هذه الظاهرة المنتشرة فالمشهد في مصر ليس فريداً بل تشبهه مشاهد أخرى في المنطقة على نحو ما قال اليمني.

ما نال مصر نقمة أو نعمة

إلا وجدت لنا بذاك نصيبا

هؤلاء جميعا ينطلقون من:

- حاضنة دينية، وثقافية تدور حول الولاء والبراء وتصنف أنفسهم الفئة الناجية وتبيح لهم تكفير الآخرين واستباحة دمائهم.

- فهم للجهاد يلزمهم بآية السيف ويوجب عليهم جهاد الطلب وقهر الآخرين على سنة: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»[1].
- يعتبرون الواقع السياسي في بلدانهم واقعاً ظالماً فاسداً إزالته واجب ديني.
- يعتبرون حكوماتهم جائرة لأنها تستعين بالكفار وتخضع لهم.

هذه النقاط الأربع رابطة فكرية تستخدم الارعاب «الإرهاب» باعتباره وسيلة لشن حرب غير متكافئة لإقامة نظام الخلافة وهم يعتقدون أن نهجهم هذا واجب ديني.

أحداث أفغانستان صنعت القاعدة ثم تفرعت. وأحداث العراق وسوريا صنعت داعش فالدولة الإسلامية ثم تفرعت. والاقتتال في ليبيا فتح المجال لداعش ومن درنة ثم سرت صارت رافداً للدولة الإسلامية. وحرب اليمن أشعلت البلاد بحرب طائفية وتمددت القاعدة في عاصمة حضرموت. هذا معناه أن الحروب الطائفية، والغارات الدولية، إنما تخلق فراغات تملؤها حركتا القاعدة وداعش أو (الدولة الإسلامية).

صحيح أن غالبية المسلمين العددية غير منخرطة في حركتي القاعدة وداعش وكيان الخلافة ولكنهم صاروا يشكلون نسبة من الجماعات الناشطة. وهم يشكلون الآن بديلاً للدولة الوطنية المتآكلة، وللنظام الدولي الظالم.

إن أسوأ ما قد يحدث هو أن تؤدي السياسات نحو الأخوان المسلمين والأحزاب ذات المرجعية الإسلامية إلى تكتل جامع ينبذ العملية السياسية ويتحالف مع التكفيريين. هذا سيناريو ظلامي ولكنه ممكن.

الحقيقة هي أن أكثرية الدول الوطنية في المنطقة عاجزة لأنها متناقضة مع

(١) مسند بن حنبل.

شعوبها، ولأنها لا تكفل العدالة الاجتماعية، ولأنها في الغالب تعتمد في بقائها على دعم خارجي.

هذه العوامل يمكن أن تدفع قوى حديثة مدنية لتكرار سيناريو «الربيع العربي» وهدفها تغيير الواقع المرفوض بالقفز إلى الأمام.

ونفس تلك العوامل يمكن أن تدفع لدواعش إلى ثورات وهدفها تغيير الواقع المرفوض بالقفز إلى الوراء.

مشكلة «الربيع العربي» هي أنه مع إرضائه لتطلعات الشعوب غير مأمون العواقب كما أثبتت التجربة السورية، والتجربة الليبية، والتجربة اليمنية، فغياب عنصر المفاجأة جعل النظم الحاكمة مستعدة فواجهت تطلعات شعوبها بالقوة.

الحروب الأهلية التي أفرزتها تلك المواجهات زادت من كشف هشاشة نظم الدولة الوطنية القطرية. وكشفت عجز الجامعة العربية عن القيام بدور إسعافي. واستباحت شؤون المنطقة إلى درجة غير مسبوقة للتدخلات الأجنبية.

أطروحة هذا الكتاب هي أن الميل نحو أحد الأطراف يستدعي حركة نحو الطرف المضاد. هكذا تولد حالة التطرف.

الطرف السائد في أكثر بلداننا معالمه هي: طغيان متحكم، وظلم اجتماعي، واستلاب ثقافي، وخلل في توازن الولاءات المورثة، وتبعية للهيمنة الدولية.

هكذا كان نظام الشاهنشاه في إيران فاستدعى نقيضه في نظام ولاية الفقيه.

عوامل الرفض في البلاد السنية، ضمن عناصر أخرى سوف نوضحها فيما بعد، أدت لظاهرة طالبان في أفغانستان. والنتيجة إمارة ماضوية.

الهجمة العسكرية على نظام طالبان هزمته في أسابيع، ولكن العوامل الأخرى الثقافية، والسياسية، غابت عن الساحة ما جعل طالبان المقهورة عسكرياً تتمدد بوسائل دفاع أخرى، بل تهيمن على الساحة الأفغانية وتمتد نحو باكستان.

القاعدة وهي تنظيم تكون في ظروف الحرب ضد الغزو السوفيتي لأفغانستان واجهته الآلة العسكرية الدولية، ولكنه منذ عام ٢٠٠١م ورغم استهدافه صمد وصارت له أدوار ملموسة في العراق، وفي سوريا، وفي مناطق أخرى باسم القاعدة في أرض الرافدين، والقاعدة في الجزيرة العربية، والقاعدة في المغرب، وهلم جراً.. بل صار للقاعدة جمهور واسع بحجم انتشار الفكر الجهادوي التكفيري.

ثورة الربيع العربي التي اندلعت في سوريا في عام ٢٠١١م كانت في بدايتها سلمية منادية بشعارات الحرية والديمقراطية.

ولكن النظام الحاكم واجهها بالقوة، مواجهة تحولت إلى حرب أهلية بين مؤيدي النظام ومعارضيه. ونتيجة للتكوين السكاني في سوريا أيدت أغلبية العلويين النظام، وأغلبية أهل السنة عارضته. قاد مقاومة النظام تكوينات كثيرة مثل الجيش الحر وجبهة النصرة. وهي فرع القاعدة في سوريا.

فرع القاعدة في العراق نشط في مقاومة الاحتلال الأمريكي، وبعد جلاء القوات الأمريكية واصلت القاعدة نشاطها تعبيراً عن رفض كثير من أهل السنة لسياسات النظام العراقي الجديد ذات المحتوى الطائفي الشيعي.

القاعدة في العراق خالفت قيادة د. أيمن الظواهري، معطية أولوية لمقاومة الشيعة، وخالفتها في الإسراع بتكوين «دولة إسلامية»: الدولة الإسلامية في العراق. أغلبية جبهة النصرة في سوريا أيدت هذه الدولة، فتكونت الدولة الإسلامية في العراق والشام: داعش. وبعد ذلك انتمت لهذه الدولة إمارات ذات أهداف مماثلة، فنادوا بالخلافة الإسلامية، وطالبوا كافة الحركات الجهادوية مبايعة أبي بكر البغدادي أميراً للمؤمنين. قيادة القاعدة رفضت ونشأ خلاف وتنافس بينهما سوف نبين معالمه فيما بعد.

«الخلافة» البغدادية تدولنت، وتمأسست، وطرحت نفسها بديلاً لنظام الدولة الوطنية القطري، وبديلاً لنظام الأمم المتحدة.

انتمت «للخلافة» فروع كثيرة في آسيا، وأفريقيا، وأوربا، ورفعت درجة الترويع لدرجة قصوى، وخرجت برعبها من أرض الرافدين لا سيما إسقاط الطائرة الروسية في سيناء في ٣١/ ١٠/ ٢٠١٥م والمذبحة الباريسية في ١٧/ ١١/ ٢٠١٥م.

الخلافة فكرها يستلهم الماضي، وأسلوبها في التمكين عن طريق الرعب أسلوب طرقه في التاريخ الوسيط جنكيز خان، وتيمور لنك، وفي التاريخ الحديث اليعاقبة في الثورة الفرنسية، والخمير الحمر.

كما استخدمت أساليب عسكرية وإعلامية، واتصالية، في غاية الحداثة والإتقان.

عقيدة صماء، وأساليب عمل حديثة، مكنت «الخلافة» من الصمود عاماً ونصف العام في وجه تحالف دولي قوي بقيادة الولايات المتحدة.

ضربات «الخلافة» بإسقاط الطائرة الروسية، والمذبحة الباريسية، طفحت بالكيل؛ فأصدرت الأسرة الدولية قرار مجلس الأمن رقم (٢٢٤٩). التحالف الموسع المتجدد بعد هذا القرار يمكنه أن يدمر دفاعات الخلافة، ولكن تدمير دفاعات طالبان في أفغانستان، ثم البعث في العراق، لم يمكن المنتصرين عسكرياً من فرض البديل الذي يريدونه. ومهما كانت نتيجة الحملة العسكرية المتوقع أن تطيح بدفاعات دولة «الخلافة»، ولكن على الصعيد الثقافي والسياسي سوف تبقى العوامل التي أفرزت الخلافة في المقام الأول.

إن حالة الرفض للواقع السقيم والقابلية للتغيير هي التي في ظروف أخرى أدت لظاهرة «الربيع العربي».

«الربيع العربي» واجه الاستثناء العربي بثورات مندرجة في موجة التاريخ، أهدافها القفز من الواقع إلى الأمام التحاقاً بالقرن الواحد وعشرين.

ثورات «الربيع العربي» تقاصرت دون أهدافها لأسباب معلومة هي:

- نظم الحكم الاستبدادي طالت عهودها وقفلت باب الاجتهاد الفكري والسياسي، فقزمت الفكر والسياسة. وفي المقابل اهتمت بالأجهزة الشرطية، والأمنية، والعسكرية فصار لهذه الأجهزة كيانات ذاتية.

- الحركات الشبابية التي أطاحت بالطغاة كانت مفاجأة لنفسها ولمجتمعها بلا قيادة معتبرة، وبلا برامج بديلة. ولكنها على أية حال كسرت حاجز الخوف وفتحت أبواب الحرية.

- توافر الحريات كشف عن ضعف التنظيمات السياسية، وفتح المجال لجماعات دينية تخندقت أثناء عهد الطغيان في أنشطة دينية حول المساجد، وأنشطة اجتماعية خدمية، وتمددت في رحاب الحرية جماعات الولاء الطائفي والإثني والقبلي.

لذلك لم يكن التغيير بالمقاييس الموضوعية حميداً، اللهم إلا في الحالة التونسية، التي لم تخل من تشويهات، ولكنها حققت إيجابيات أسعفها لتحقيقها ثلاث عوامل هي: وجود مجتمع مدني قوي، ووجود قوات مسلحة ملتزمة بالمهنية خالية من طموح الخوض في السياسة، ووعي حزب المرجعية الإسلامية الذي لم يبهره الانتصار الانتخابي فعرف قدر نفسه.

ومهما كان حظ ثورات «الربيع العربي» فإن أهدافها باقية، وسوف تعود حتماً لأن استمرار الأوضاع الحالية، والبديل القاعدي أو الداعشي، بل حتى أية تدابير تفرضها الهيمنة الدولية احتمالات غير مجدية.

لا جدوى مستدامة في ظروفنا الحالية إلا لمستقبل سماته الأساسية هي السلسلة السبعية الآتية:

أولاً: تأصيل غير منكفئ، وتحديث غير مستلب.

ثانياً: تعامل اجتهادي مع التراث يدعم إيجابياته، ويميز قطعياته، ويتخلى عن سلبياته.

ثالثاً: نظـم حكـم تحقـق المشـاركة، والمسـاءلة، والشـفافية، وسـيادة حكـم القانون، وكفالة حقوق الإنسان.

رابعاً: نظم اقتصاد تحقق التنمية والعدالة الاجتماعية.

خامساً: نظم تعليم تبث المعرفة وتحقق توطين التكنولوجيا الحديثة.

سادساً: تطوير الالتزام الوطني بصورة تستوعب التنوع في ظل الوحدة الوطنية، وتسمح بعلاقات بينية قومية، وإسلامية ودولية.

سابعاً: تأسيس علاقات دولية تقوم على الندية، والمصالح المشـتركة والسـلام العادل وتتجنب العداوات والتبعية.

هذا الكتاب يقدم تشخيصاً للحالة بكل أبعادها ويبين الخطى اللازمة لخلاص الأمة في إطار توفيق بين التأصيل والمعاصـرة وبـين حلقـات الانتمـاء الضـرورية الأربع: الوطنية، والقومية، والإسلامية، والعالمية.